مصطفى كامل

طاردُ اليأس من الحياة

- ٢٤ عامًا من الإنجازات
- ضرب مثالاً فى الإخلاص فانقاد له الصغار والكبار.
- لم يتزوج وكانت حياته جهادًا لا يتوقف.
- رفض عزل الخديوى عن الشعب وقاطعه بعدما انحاز للإنجليز.
- التقى عبد الله النديم للتعرف إلى أسباب فشل ثورة عرابى.
- أحرار فى بلدنا كرماء لضيوفنا .وليرحل الاحتلال عنا.

كم من الناس عبروا هذه الحياة ولم يخلفوا فيها أثراً؟

مليارات عدة.. لكن مصطفى كامل رحل بعد أن ترك فى مصر والمنطقة أثرا من إخلاصه ووطنيته. ويكفيه شرفًا أن نسمع مقولة: «لاحياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة» فنقول:

«إنه مصطفى كامل».

الوطنية فى أسمى معانيها، وحب الوطن فى أعلى مراتبه، والتضحية والفداء فى قمة درجاتيهما، وإنكار الذات وذوبها فى عشق الهدف والغاية الأسمى، كلمات لا تفى بحقوق هذا المناضل، الذى أذكى روح الوطنية وأشعل نيران الكراهية فى قلوب المصريين تجاه المحتل الإنجليزى، وهو الذى وهب حياته ووجوده وعقله ولسانه، ولبه وجنانه لبلده مصر، فلا حياة إلا بها.

يوم وفاته عمَّ الحزن القطر المصرى من أقصاه إلى أقصاه، وانتحب المشرقان، وتجاوبت أصداء الحزن على رحيله فى ربوع العالم الإسلامى، وسُمع دويّه فى أوروبا والشرق الأقصى بما لم يُسمع بمثله فى وادى النيل.

الإخلاص للمبدأ

كان مصطفى كامل عفيف النفس نزيه الخُلُق، صادق اللهجة، عالى الهمة لا يهمه من أحوال الحياة غير التفكير فى الغاية، التى أوقف حياته عليها وهى خدمة بلده بأقوم السبل وأنفعها. وكان يعتقد أن الاستقلال أول خطوة يجب السير فيها، ويعنى بالاستقلال خروج الإنجليز من مصر.

واستجمع قواه فى هذا السبيل فسافر وكتب وخطب وجادل وناقش لهذا

الغرض. وكان يري أن مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الإسلام على العموم، فكان شديد الدفاع عنه كثير السعى فى نصرته.

كان مصطفى كامل مخلصًا لمبادئه إخلاصًا تامًا، منذ أن كان تلميذًا لا يسمع صوته إلا رفاقه، حتى صار خطيب المحافل ومتكلم القوم وزعيم الحزب الوطنى وصاحب الألوية الثلاثة.

ويدل على إخلاصه لمبادئه، انقطاعه لهذه الدعوة وتفانيه فى سبيلها. حتى شغلته عن سائر مطالب الحياة وملاذ الشباب، فلم يتزوج ولم يجلس للهو، ولم يخض مع الخائضين. ولم يسعده غير الحديث عن الوطن، أو الاستقلال، أو الجلاء.

وأجمع الذين عاشروه، من رفقائه وأصدقائه، على حبه واعتقاد الإخلاص فيه، فضلاً عن الآخرين، مما لا يتأتى لغير المخلصين، ثبت أصحاب مصطفى كامل فى ولائه حيًا وميتًا وهم يتفانون فى سبيل نصرته، وفيهم جماعة من نخبة العقلاء والفضلاء، ومعظمهم أكبر منه سنًا، وأوفر مالاً، وأعرض جاهًا، وبعضهم أغزر منه علمًا، وقد نصروه بعقولهم وأموالهم وقلوبهم، ولم يستنكفوا من تصدره فى مجالسهم، ولا داخلهم الحسد من رئاسته عليهم.

كان متوسط القامة، قمحى اللون، سريع الحركة، جريئًا مقدامًا، فصيح اللهجة، قوى العارضة، شديد الثقة بنفسه، واسع الآمال، طموحًا للعلا، مستقل الفكر، صريح القول، يغلب فيه الذكاء وحدة الذهن وسرعة الخاطر.

وكان إذا نهض لأمر اقتحمه اقتحامًا، وجاهد فى سبيله بيده ولسانه وجنانه، ولا يعجزه السفر، ولا يبالى بالتعب، فقضى زهرة شبابه مقاتلاً من أجل قضية بلاده، ينتقل من قارة إلى قارة، ومن عاصمة إلى عاصمة، لا يتحول عن منبر عربى حتى يعلو منبراً أجنبيًا.

طفل متميز

ولد مصطفى كامل يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤م فى منزل متواضع فى حى الخليفة، فى القاهرة، وكان أصغر أولاد المهندس على أفندى محمد، الذى عمل فى بناء الجسور، واشتهر بين معارفه بالطيبة وحُسن الخلق. وكتب القدر لهذا الوليد تاريخًا مجيدًا، فمنذ شب عن الطوق لا هم له، ولا أمل ينشده إلا أن يرى فى مصر حركة وطنية تستهدف تحقيق الجلاء عن مصر، وإقامة حكم دستورى صحيح فيها.

ظهرت عليه علامات القيادة منذ السنوات الأولى من حياته، فبدت المواهب التى لا غنى عنها لزعيم وقائد لحركة مقاومة وتحرير. وعرفت المنابر والصحف الكبرى، وفى مقدمتها «الأهرام» و «المؤيد» مصطفى كامل الخطيب والكاتب، وكأنه رجل تمرس على فنون الكلام المقروء منها والمنطوق، واستطاع أن يجسد الحجج باتساق أخاذ ويسوق العبارات، لتصغى إليه الأسماع والأفئدة معًا، وهو لايزال تلميذًا فى المدرسة الثانوية أو طالبًا فى مدرسة الحقوق، لذلك كان من السهل عليه أن يُصدر، وهو تلميذ فى مدرسة الحقوق، مجلة المدرسة وهى مجلة وطنية أدبية تهذيبية اتخذ لها شعارًا وطنيًا. ولم تكن الدراسة إلا سبيلاً للجهاد من أجل مصر، التى أحبها وملكت عليه مشاعره فنظم فيها قصائده من الشعر المنثور الذى تغنت به الأجيال التالية. التى تحولت إلى طليعة حركة وطنية واقعة أحاطت بالاحتلال البريطانى وضيقت عليه الخناق، وأثارت الكراهية عليه وله واستنفرت العزائم وجموع الشعب المسالمة على الثورة ضد البطش والطغيان للإجهاز على الاحتلال. فخرج الخطباء والكتاب معلنين عدم استسلامهم، وشملت مصر كلها حركة من النهوض واليقظة. فتوالت المشروعات القومية تظهر أفكارًا تحقق فى الحياة المصرية صروحًا وأعمالاً، فكان مشروع الجامعة ومشروع المصرف القومى، ومشروع التعاون وأندية المدارس العليا، وجمعية الهلال الأحمر ونقابات العمال ومدارس الشعب الليلية، ومضى مصطفى كامل فى جولات طويلة خارج مصر فى عدد كثير من الدول، يخطب ويكتب ويعقد

الصداقات ويخطب ود الزعماء ويطرق باب الوزراء، ويُدلى بالأحاديث حتى أصبح علمًا فى محافل أوروبا وآسيا.

طالب غير عادى

كان والد مصطفى كامل شديد الحرص على تعليم أولاده، حيث عهد بابنه «مصطفى كامل» وهو ابن الخامسة، إلى فقيه يعلمه مبادئ القراءة والكتابة ويحفّظه القرآن، حتى التحق عام ١٨٨٠م بمدرسة «أم عباس» الابتدائية فى الصليبة، ثم مدرسة السيدة زينب، وكان متفوقًا فى دراسة التاريخ والرياضيات. ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية، وظل يتابع الدراسة فيها بتوفيق وامتياز حتى حصل على شهادة إتمامها سنة ١٨٩١، وأنشأ جمعيات وطنية وأدبية أثناء وجوده فى المدرسة الثانوية، وكتب فى صحيفة «المؤيد»، وكان يتردد، وهو تلميذ، على مكتب ناظر المعارف «على باشا مبارك» يجادله ويناقشه فتوقع له مستقبلاً باهرًا، والتحق سنة ١٨٩١م بمدرسة الحقوق، ثم التحق سنة ١٨٩٢م بمدرسة الحقوق الفرنسية، وظل جامعًا بين الدراسة فى المدرستين، ليتمكن من اللغة الفرنسية، واتصل بأعضاء مجلس شورى القوانين وهو فى مدرسة الحقوق وأنشأ مجلة «المدرسة». وبدأ مصطفى كامل جهاده الوطنى بعد تسع سنوات من إخماد الثورة العرابية، أفلح الاحتلال خلالها فى أن يسيطر على مقاديـر البلاد سيطرة تامة وكاملة، فأشاع فيها روح اليأس والاستسلام. ورغم ذلك لم يفقد الشعب إيمانه بالثورة وإن خبت جذورها قليلاً، فالروح الوطنية لم تمت ولم تكن الثورة العرابية إلا بداية تتلوها مراحل تعود فيها البلاد إلى يقظة أكثر نضجًا وأكثر تطورًا ووعيًا. فما كان يُعقل بعد ثورة عرابى أن تموت الحركة الوطنية، وتنطفئ شعلتها، وإنما تخبو لتشتعل من جديد على أيدى أبناء الوطن. وهذا ما أدركه مصطفى كامل بوعى وفكر مثقف، فأدرك أسباب إخفاق الثورة العرابية وهزيمتها ليتجنبها فى جهاده، فكان لقاؤه سنة ١٨٩٢م مع عبد الله النديم، الذى عرف منه كل أحداث الثورة العرابية وحوادثها.

دعوة الجهاد

أتم مصطفى كامل دراسة الحقوق فى كلية «تولوز» الفرنسية فى نوفمبر ١٨٩٤م ونشرت صحيفة الكلية موضوعًا عن تفوقه، وقالت إنه أعد نفسه للدفاع عن مصر أمام الرأى العام الأوروبى.. وفى ديسمبر سنة ١٨٩٤ عاد إلى مصر مزودًا بعلم وثقافة جديدة، ودرس مجموعة من الكتب المهمة القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم، وبدأ نشاطه الجهادى بالاتصال بمعارفه من المعجبين بذكائه ووطنيته، يحثهم على الدعوة لمقاومة الاحتلال، كما تعرف على كثير من الشخصيات البارزة من الكُتَّاب والأدباء وأعضاء مجلس شورى القوانين وكذلك الأعيان.

وبدأ جهاده الفعلى بالاحتجاج على اللورد كرومر، الذى أنشأ المحكمة المخصوصة لمحاكمة الأهالى الذين يعتدون على ضباط وجنود القوات البريطانية ورأس المحكمة وزير «الحقانية» المصرى وضمت فى عضويتها المستشار القضائى الإنجليزى وقاضيًا إنجليزيًا وممثلين عن جيش الاحتلال، أى أنها كانت محكمة إنجليزية جعلوا رئاستها لوزير الحقانية المصرى للتضليل والإيهام وكان مفهوم مصطفى كامل للوطنية آنذاك مفهومًا فكريًا صرفًا، واتسمت الحركة الوطنية التى قادها بطابع القومية العاطفية، فى البداية، لطوائف المثقفين التى تذكيها مشاعره وحماسته ومواهبه الشخصية، ثم شرع فى جهاده يعتمد على قوة الرأى العام ويعمل على تربية الشعب التربية الوطنية الصحيحة الواعية. واستفاد مصطفى كامل من خبرات أسلافه المجاهدين، إذ علم أن اصطدام أنصار أحمد عرابى بالخديوى توفيق إبان الثورة العرابية مكن دسائس الإنجليز من أن توقع الفرقة والانقسام فى مصر، فنأى بنفسه عن هذه السياسة، وسلك بالحركة الوطنية الطريق التى قادها إلى سبيل التفاهم مع الخديوى عباس الثانى.

جهاد فى الخارج والداخل

سافر فى مايو سنة ١٨٩٥م إلى فرنسا للدعوة للقضية المصرية ومهاجمة

الاحتلال البريطانى، فكتب فى الصحف عشرات المقالات، وألقى الكثير من الخطب فى المحافل العامة، ثم قصد النمسا ليواصل الهجوم هناك على الاحتلال ومسانديه، ثم عاد إلى باريس مرة أخرى ونشر رسالته المشهورة التى ضمنها عبارته الخالدة «أحرار فى بلدنا كرماء لضيوفنا». وفى هذه الأثناء تعرف على إحدى سيدات المجتمع الفرنسى، وهى مدام جولييت آدم، التى تعد معرفته بها حدثا مهمًا فى حياته السياسية، لأنها من أبرز من ناصروه فى الخارج فى دعوته لقضية بلاده، وأصبح صالونها ومكانتها فى المجتمع الفرنسى منبرًا أصيلاً وداعمًا قويًا فى نجاح دعايته. وتوجه سنة ١٨٩٦م بدعوته إلى بريطانيا، حيث راسل زعماء الأحزاب، خاصة زعيم حزب الأحرار، الذى أيده بضرورة جلاء الاحتلال عن مصر، ونقم الإنجليز فى مصر على مصطفى كامل فنكلوا بشقيقه «على بك كامل» الضابط فى الجيش المصرى فى السودان وأساءوا معاملته، حتى أقدم على الاستقالة، لكنهم رفضوها ثم أحالوه إلى الاستيداع وقدموه لمحاكمة ظالمة نزلت به من رتبة «ضابط» إلى رتبة نفر «جندى» واستعان مصطفى كامل بالخديوى، الذى استقبله وعفا عن أخيه، وكانت علاقة الخديوى بمصطفى كامل فى بادئ الأمر قوية، لشعور الخديوى بمنافسة الإنجليز له فى حكم البلاد، وكان الخديوى يتقرب فى مقاومته نفوذهم، من الحركة الوطنية. ومن هنا استند مصطفى كامل فى أول ظهوره إلى مؤازرته، وكان هدف هذه الخطة من جانب الزعيم الشاب تجنب أخطاء زعماء الثورة العرابية فى التفرقة بين الأمة والخديوى، الأمر الذى حاول مصطفى كامل أن يتحاشاه كمبدأ أساسى لبعث الحركة الوطنية. إلا أن الأمر تبدل فيما بعد بسنوات، بعد أن زاد بطش الاحتلال الإنجليزى، فبدأ الخديوى يتودد إلى الاحتلال وقد ضعف أمله فى الجلاء، وقد ظهر انحياز الخديوى بشكل واضح إلى الإنجليز، بعد أن تم الاتفاق الودى بينهم وبين فرنسا عام ١٩٠٤ مما اضطر مصطفى كامل إلى تغيير موقفه وقطع علاقته بالخديوى.

صاحب الألوية الثلاثة

توجه مصطفى كامل عام ١٨٩٧م بدعوته لحركة الجهاد الوطنى إلى ألمانيا والعديد من الدول الأوروبية. وزادت الحركة الوطنية اشتعالاً عام ١٨٩٩ حينما ألزمت بريطانيا الحكومة المصرية قبول اتفاقية السودان، التى خولت للانجليز حق الاشتراك فى إدارة شئون الحكم فيه، وأنشأ سنة ١٩٠٠م جريدة «اللواء» فقرأها الناس فى مصر، ثم فى العواصم العربية، حتى وصلت إلى الهند والصين، فأصبحت منبرًا لكل حركة تحرير فى العالم، الذى سمى لاحقًا «العالم الثالث»، ومالبث أن أصدر إلى جوار جريدة اللواء اليومية، المنشورة بالعربية، جريدتين يوميتين أخريين، هما اللواء الإنجليزية، ثم اللواء الفرنسية، وأصدر مجلتين إحداهما شهرية والأخرى أسبوعية. وأصبحت إحداهما وقفًا على أبناء العالم الإسلامى وحركاته. وكانت هذه المؤسسة الصحافية العجيبة هى الأولى والأخيرة من نوعها، فلم يعرف تاريخ الحركات الوطنية فى مصر أو فى الوطن العربى أو فى العالم الإسلامى، صحافيًا يصدر كل هذا الكم من الدوريات والصحف فى دار خاصة بها مزودة بأحدث آلات الطباعة فى ذلك الوقت.

ونال عام ١٩٠٤م رتبة الباشوية قبل أن تسوء علاقته بالخديوى وألف فى العام ذاته كتابًا عن اليابان، التى صمدت فى حربها ضد روسيا وقاومتها بفضل روحها الوطنية. وأراد بذلك، أن يضرب المثل لشعب مصر. وجمع خطبه، والرسائل التى تبادلها مع الساسة العالميين وترجمها إلى الفرنسية وطبعها فى كتاب ووزعه فى معظم دول العالم دفاعًا عن مصر.

مأساة دنشواى

وقعت يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦م حادثة «دنشواى»، التى شنق الإنجليز بسببها بعض أهالى قرية دنشواى وسجنوا آخرين. وكان مصطفى كامل فى أوروبا، ووصل إليه النبأ، فكتب فى الصحف الأجنبية مقالاً وجهه إلى الأمة الإنجليزية. وكان للمقال دوى عظيم فى ربوع أوروبا وفى إنجلترا لبلاغته وعباراته

المؤثرة. ما جعل صحيفة «تريبيون» الإنجليزية تقترح منح مصر حكومة مستقلة. وُزلزلَ من بعد ذلك، مركز اللورد، كرومر، العتيد فى مصر. وفى ١٤ يوليو سنة ١٩٠٦م سافر إلى إنجلترا ليرفع صوت مصر فى العاصمة الإنجليزية، والتقى السياسيين وحملة الأقلام، واتصلت به الجاليات الشرقية والإسلامية. وأفلحت جهوده فى حمل اللورد كرومر على تقديم استقالته. ولما جاء خلفه «سير إلدون جورست» أوصى حكومته بالإفراج عن المحكوم عليهم فى دنشواى.

وأرسل يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ خطابًا إلى رئيس وزراء بريطانيا، يحتج على استمرار الاحتلال الإنجليزى وتناقلته الصحف العالمية، وعلقت عليه مؤيدة وجهة نظر مصر.

وفى إطار نظرته إلى الاحتلال، باعتباره أكبر خطر يعوق تقدم الأمة، عمد مصطفى كامل إلى الحفاظ على الوحدة الوطنية والقومية، عن طريق الدعوة إلى إنهاض الفلاح وإعلاء مكانته، لأنه ممثل النشاط المصرى ومصدر كل خير ونعيم. وعمد فى الوقت ذاته، إلى الحفاظ على الوحدة الوطنية أيضا عن طريق وحدة المسلمين والأقباط. وقال فى خطبته فى الإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧م: «كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو إلى الشقاق والبغضاء بين المسلمين والمسيحيين، وهذه الدعوة مناهضة للوطنية الصحيحة؟ فالأقباط إخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق».

وكان مصطفى كامل أول من أشرك الأقباط فى الحركة الوطنية، فقد اصطفى

من أقواله

* «لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة».

* «بلادى بلادى، لك حبى وفؤادى، لك حياتى ووجودى، لك دمى ونفسى، لك عقلى ولسانى، لك لبى وجنانى، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر».

* «لو لم أكن مصريا.. لوددت أن أكون مصريًا».

إليه ويصا واصف ومرقص حنا، وكان ويصا واصف عضوًا منتخبًا فى اللجنة الإدارية الأولى للحزب الوطنى.

ولهذا لم يكن غريبًا أن تتعلق به قلوب المصريين، وتعشقه عشقا لا مثيل له، فلما شكل الحزب الوطنى انتخبوه رئيسًا له طول حياته، ولكنه رحمه الله كان قصير الحياة فتوفى فى العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره.

ولكن هذه السنوات الثلاث عشرة. التى جاهد فيها مصطفى كامل من (١٨٩٥ - ١٩٠٨) هى فى الواقع حياة طويلة. لأنها حياة جليلة بنشاطها. وبأعمالها، جليلة بإيمانها وسعيها. لقد عمل لوطنه فى عشر سنوات ما لم يعمله غيره فى عشرات السنين. بل ما لم تعمله أجيال بأسرها. لذلك كان جزاء وفاقًا أن تحزن مصر هذا الحزن الكبير على زعيم الوطنية العظيم مصطفى كامل.

مؤلف وأديب

كان مصطفى كامل علمًا من أعلام البيان، لولا انشغاله بقضية بلاده، لأصبح له شأن كبير فى عالم البيان والتأليف رغم جهاده وكتاباته فى الصحف وخطبه فى مصر وخارجها، إلا أنه ألّف رواية: «فتح الأندلس» التمثيلية، وكتابًا فى حياة الأمم والرق عند الرومان، وألّف كتاب المسألة الشرقية، وكتابًا عن اليابان، وغيرها. وكلها كانت ترمى إلى تحبيب الاستقلال إلى المصريين، وإحياء الشعور الوطنى فيهم.